الفصل الرابع

مفهـوم الدرامـا

وأثرهـا علـى الأطفـال

الدراما والمسرح وجهان لعملة واحدة، ووحدتهما هى التى تؤدى إلى وجود فن مسرحى ينبض بالحياة. فالدراما تتولد من الفكر والعاطفة والخيال، وهذه جميعها تحتاج إلى المسرح الحى الذى يتألف بمختلف التعابير الجميلة من حركة ورقص وغناء وتمثيل.

إن كلمة "دراما" الشائعة فى لغة المهتمين بالمسرح فى الوطن العربى - وفى لغات معظم الأقطار الأوربية الحديثة - مشتقة من كلمة يونانية قديمة، تعنى "يفعل" أو "عملا يؤدى" والحقيقة أن الدراما فى وجهها المتكامل، لا بد وأن تتضمن "الفعل" و"المشاهدة". وهذا ما يعبر عنه فى مجال الدراسة المسرحية بكلمات اصطلاحية متزاوجة، مثل: المسرحية والعرض، أو النص والإخراج، أو الخلق والتفسير.. إلخ.

وإذا نظرنا إلى كلمة "دراما" على أساس أنها عمل أو حركة أو حدث فهى محاكاة؛ لأن المحاكاة تشتمل على العمل والحركة والحدث.

ويوضح **أرسطو** أن المحاكاة أمر فطرى موجود فى الإنسان منذ الصغر، وأن الإنسان يفترق عن سائر الأحياء بأنه أكثرها محاكاة، وأنه يتعلم أول ما يتعلم بطريق المحاكاة.

وإذا كان إنسان اليوم يعبر عن انفعالاته المفرحة والمحزنة بطريقة غريزية بواسطة أفعال عملية، فمن الطبيعى أن يكون الإنسان البدائى قد عبر عن الانفعالات نفسها

بالفرحة أو الحزن بطريقة لا تختلف كثيرًا عن إنسان العصر الحديث بالرغم من قلة محصوله اللغوى.

ولقد أوحت إليه الطبيعة نفسها من حوله بالحركة الموزونة فى التعبير عن أعماق مشاعره، فقد رأى الطبيعة تتحرك حركات إيقاعية، متمثلة فى حركات الأمواج المائية، وتموجات الحقول تداعبها الرياح، وظاهرة شروق الشمس وغروبها ثم ظهور القمر واختفاؤه فى نظام ثابت، حتى دقات قلبه التى تحمل سمة الإيقاع.

ويوضح **عادل النادى** أن التعبير الدرامى عند الإنسان البدائى بدأت دائرته تتسع، فبعد أن كانت الدراما عنده لا تعتمد إلا على عنصرى الفعل والتقليد، دخل عنصر الصراع، إذن فالإنسان البدائى عرف القصة أيضًا ولكن فى صورة مبسطة جدًّا. ثم رويدًا رويدًا بدأ مجال التعبير الدرامى يتسع شيئًا فشيئًا.

ولقد تطورت الدراما كثيرا على مدى تاريخها، ونتج عنها أشكالًا متعددة مثل الأوبرا والباليه، والمسرح الإيمائى، ومسرح العرائس، والمسرحيات الموسيقية، والسيرك، والدراما من خلال السينما والتليفزيون والراديو. والأصل فى الدراما هو المسرح، والأشكال الدرامية الأخرى تحتاج إلى معظم العناصر والتقنيات التى يحتاج إليها المسرح الحى، من ذلك مثلًا مجموعة الممثلين، الديكور والمناظر، الموسيقى، الإضاءة، الملابس.

ويؤكد **"سليد"** على الآثار الإيجابية للدراما على الفرد، سواء أكان راشدًا أم طفلًا، وأنها تعمل على إيجاد فرد سعيد ومتوازن. وأيضًا عن طريقها يتعرف المربى على الطفل وإمكاناته ويصبح شخصًا ودودًا صديقًا للطفل قادرًا على فهمه وحل مشكلاته. وأن الانطلاق فى التمثيل له تأثير إصلاحى ملحوظ على السلوك، وهو يستطيع أن يقوم بدوره كشكل من أشكال الوقاية من الأمراض النفسية.

ويتفق "وليم كرايمر" مع "بيتر سليد" على الدور الإيجابى الذى تلعبه الدراما فى

الوقاية من الأمراض النفسية، وأنها تثبت جدواها الأكيد فى التربية والعلاج للفرد وللجماعة.

ويرى "**بيرتون**" أن التمثيل ككل فن عظيم يطهر النفس ويعالجها، وأن للتمثيل أثره فى علاج المشكلات الفردية التى تتراوح بين الخجل الشديد وعدم الرغبة فى التعامل مع الناس وبين الميول الإجرامية، فالسماح لمثل هؤلاء الأفراد بالتعبير عما يعانونه بالتمثيل يمهد الفرصة لتحسن حالاتهم. ومع أن الحالات الشديدة لا تقع فى نطاق عمل المعلم، إلا أنه يشرف على الحالات التى قد تتطور نحو تلك الاتجاهات، ولديه فى التمثيل فرصة لإعادة هؤلاء إلى الحالة الطبيعية والصحة النفسية، إذ بمجرد التنفيس عن الحالة بتمثيلها يمكن للشخص أن يراها على حقيقتها فتزول سيطرتها عليه وعلى نفسيته.

فالطفل الذى يريد أن يسترعى الانتباه متخذًا سبيل الجنوح والخروج على العرف قد يجد صعوبة فى الانسجام مع النظام الموضوع لهذا النشاط إذ يسيطر عليه حب الظهور وأن يكون مخالفًا، ولكن بالتدريج يلقى مكانه المناسب داخل المجموعة. ويشير "بيرتون" إلى أنه يحدث العكس: "للطفل الخجول أو غير المتعاون، فهو يرفض الانضمام للجماعة، وبالتدريج يشجعه المعلم ويطلب معاونته البسيطة كتصفيف الكراسى للمنظر القادم"، وخطوة خطوة يصبح عضوًا فى نشاط الجماعة.

وتشير "**حنان العنانى**" إلى دور الدراما وأثرها فى التربية والتعليم فى النقاط التالية:

١- أنها تثرى قدرة الفرد على التعبير عما بداخله.

٢- أنها تتيح الفرصة للطفل ليجرب مواقف الحياة المختلفة ومحاولة التكيف معها. فيصبح أكثر قدرة على التعامل مع المواقف والأشخاص.

٣- هى تخلص الطفل من الكبت والانفعالات الضارة. وتعرفه بنفسه، بقدراته ومواهبه، مما يساعده فى تنمية شخصيته.

٤- تروض الجسم، وتنمى الحواس، وتقوى رابطة الصداقة مع الكبار مما يساعده فى التعلم، ومع الأقران فيكون التعاون، وضبط النفس، وتكون المشاركة الوجدانية، وتطور لدى الطفل مهارة القيادة، وأيضًا الطاعة. كل ذلك من خلال تقديمه للأدوار المختلفة ومعايشته للمواقف.

٥- هى تثرى اللغة عند الفرد، وتقضى على عيوب النطق، وتعدل السلوك.

٦- تنمى الخيال، فيكون الإبداع، وتزيد المعلومات فينمو حب الاطلاع.

٧- تبسيط المناهج الدراسية وتعرضها بأسلوب مشوق جذاب، فيشعر الطفل بالمتعة والبهجة، مما يجعله أكثر قابلية للتعلم.

ويرى **"كمال الدين حسين"** أنه أصبح من المسلم به الآن بين المهتمين بالتربية وتنشئة الأطفال، وبين علماء النفس، والمسرحيين، أهمية دور الدراما كنشاط مدرسى يساعد فى تنمية عدد من مهارات الأطفال، وأنه قد بنيت هذه المسلمة على أساس أن ممارسة النشاط الدرامى هو حاجة طبيعية لدى الأطفال، فالأطفال باختلافهم يحتاجون إلى التعبير عن ذواتهم بشكل إبداعى، ويتم ذلك من خلال النشاط الدرامى والذى يعتبر امتداد للعب الأطفال، والمعروف باللعب الإيهامى أو الخيالى.

إن التمثيل بما له من قوة وحيوية فى التجربة الإنسانية يعتبر عنصرًا من العناصر المكينة فى التربية، فهو وثيق الصلة بالصحة العقلية والبدنية، والإنسانية الكاملة، وكذلك الإدراك الفنى. ويمكن الاستفادة من هذا الميراث الإنسانى الثمين وتلك الفرص التى يعطيها لنمو الخبرات الشخصية فى ناحيتين رئيستين بالمدارس. فهناك أولًا أهمية النشاط التمثيلى فى التربية بصفة عامة وما له من قيمة بالنسبة للصفات الأخلاقية والاجتماعية اللازمة لكل فرد، ثم تطبيقه كطريقة من طرق التدريس فى مواد الدراسة المختلفة كالدين واللغة والفنون البصرية والجغرافيا والتاريخ والتربية البدنية. ويمكن أن نقول: إن التربية فى سنى الطفل الأولى تقوم كلها على أساس

التمثيل. أما الناحية الثانية وهى الأكثر تخصصا فيمكن أن نسميها "التربية فى التمثيل"، وبمقتضاها يوجه الأطفال نحو تقدير فن التمثيل كشكل فنى، ونحو زيادة خبراتهم ومعرفتهم بالمسرح. وبما أنتجه كبار المسرحيين، وبذا نصل بهم إلى الإنسانية الكاملة الحقة التى تنطوى عليها مثل تلك الخبرات.

ويؤكد **"مارك توين"** على الأثر الأخلاقى لمسرح الأطفال حين اعتبره أقوى معلم للأخلاق، وخير دافع إلى السلوك الطيب اهتدت إليه عبقرية الإنسان؛ لأن دروسه لا تلقن بالكتب بطريقة مرهقة، أو فى المنزل بطريقة مملة بل بالحركة المنظورة التى تبعث الحماس، وتصل مباشرة إلى قلوب الأطفال التى تعتبر أنسب وعاء لهذه الدروس. إن كتب الأخلاق لا يصل تأثيرها العقل، وقلما تصل إليه بعد رحلتها الطويلة الباهتة، ولكن حين تبدأ الدروس رحلتها من مسرح الأطفال فإنها لا تتوقف فى منتصف الطريق بل تمضى إلى غايتها.

إن إثارة المشاعر النبيلة لدى الأطفال له قيمة لا يستهان بتأثيرها عليهم، وكل مسرحيات الأطفال تقريبًا تقوم على المثاليات كالإخلاص، والشجاعة، والأمانة، والبطولة، والعدالة، ولما كانت هذه المثاليات تتجسد فى شخصيات يحبها الأطفال، وتستأثر بمشاعرهم من خلال موضوع المسرحية التى يتصارع فيها الخير والشر، لذلك كان من الضرورى أن يتمخض هذا الصراع عن شىء مهم ومؤثر فى نفس الطفل.

وكذلك يشير **"سعود عويس"** فى "دراسته حول دور مسرح الطفل فى التربية المتكاملة للنشء" إلى أن المسرح يعتبر أحد الوسائل التعليمية والتربوية الذى يدخل فى نطاق التربية الجمالية والتربية الخلقية فضلًا عن مساهمته فى التنمية العقلية إلى جانب اهتمامه بالتعليم الفنى للنشء منذ مراحل تكوينهم الأولى داخل وخارج المدرسة.

ولقد أصبحت اليوم الوسائل الإعلامية المختلفة من إذاعة وتليفزيون وسينما

تساهم فى نقل الأعمال المسرحية مما وسع من دائرة تأثيرها على النشء. وقد تكون للدراما آثار ضارة على الفرد إذا أسىء تأليفها أو استخدامها على المسرح، فهناك مسرحيات نجحت جماهيريًّا لاحتوائها على عنصر الفكاهة والمرح على الرغم من تقديمها لقيم غير تربوية.

وفى دراسة **يعقوب الشارونى** "الدور التربوى لمسرح الأطفال والممثل فى مسرح الطفل" يشير إلى أن استخدام المسرح والتمثيل لتنمية مختلف الجوانب المرغوبة لدى الطفل هو من أهم الوسائل التى يتزايد انتشارها بسرعة كبيرة فى كثير من البلاد التى وجهت عنايتها المركزة إلى تطوير الوسائل التربوية.

من هنا تأتى أهمية المسرح المدرسى، الذى هو أهم مسارح الأطفال إذا أردنا أن نربى ونعلم بصدق، ويكفى أن يكون سبب ذلك استحالة تواجد مجموعة من الأطفال متناسبى الأعمار والأفكار والمستوى الثقافى إلا فى البيئة المدرسية وخاصة الفصل الدراسى الواحد، أو السنة الدراسية. وهى الإشكالية العظمى التى تواجه كتاب مسرح الأطفال عند تأليف نص يكون مشاهدوه من أعمار وبيئات ومستويات مختلفة.

ومن هنا أيضًا تأتى أهمية سلامة الحقائق والمفاهيم التى يجب أن يتقيد بها المضمون فى مسرحيات الأطفال حتى إذا لم تكن المسرحية علمية أو تعليمية؛ لأن كل من يتصدى للعمل فى ميادين أدب الأطفال وثقافة الأطفال يسهم بقدر ما فى إعداد الأجيال الجديدة، وبناء شخصياتها وتكوين مفاهيمها ومعلوماتها واتجاهاتها.